

تاريخ الارسال: 2018-06-13

تاريخ القبول: 2018-07-08

تاريخ النشر: 2018/07/30

أصل الأخلاق بين فريديريك نيتشه و كارل ماركس

الباحث مولود قدور بن عطية

إشراف د. صحراوي بن حليمة

جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم

مدخل عام

تعنى السوسولوجيا باهتمامات بحثية خلافية تحدد لها طبيعة الوقائع الاجتماعية المنضوية ضمن السياق الاستيمولوجي لهذا الحقل العلمي للانتقال من الاجتماعي إلى السوسولوجي عبر أنساق منهجية معينة، بينما لا يغني ذلك عن وجود بعض الوقائع الاجتماعية التي بالإمكان أن تتضافر في تفسيرها أو فهمها وتأويلها قراءات تضافرية متباينة.

بناء على هذا نستحضر مسألة الأخلاق بالنظر إلى إمكانية تبينتها ضمن حقول معرفية متفاوتة، حيث سيتم اقتحام السياق الوجودي لتتبع الأصل في إنتاجها لدى كل من "كارل ماركس" باعتباره منظرا سوسولوجيا و"فريديريك نيتشه" كمتعلم من معالم الفكر الفلسفي، وفي الوقت ذاته نحاول إثبات التناقض الحاصل بين اليسار الهيجيلي الذي يمثله "ماركس" واليمين الهيجيلي الممثل من طرف "نيتشه"، لنجيب بذلك عن التساؤل التالي:

ما هو أصل الأخلاق لدى "كارل ماركس" و"فريديريك نيتشه"؟

ما هي حدود التناقض الحاصل بين كلا التيارين الماركسي والنيتشوي؟

1- الأخلاق من منظور فريديريك نيتشه

حضيت مسألة الأخلاق بفضاء رحب لدى أعمال "نيتشه"، مما دفعه إلى البحث فيها محاولا الفصل في قضايا تتعلق بأصلها مثلا ومكانتها لدى الفرد، وعليه يتبنى منظومة مفاهيمية محددة يشكل كل من مصطلح الطبيب، الخير، الخبيث والشر مفاهيمها المحورية، وفي الوقت ذاته يستعرض أهم المحاولات التي تبنت الهدف ذاته

وأقصد بذلك البحث عن أصل الأخلاق، حيث نجده يقلل من القيمة المعرفية لتلك المحاولات التي طرحت، وهو يقصد قصور البعد التاريخي في النظر إلى هذه المسألة، حيث يقول: "...للأسف إن الذهن التاريخي قد غاب عنهم... طريقة للتفكير منافية للتاريخ"¹

يتحدث "نيتشه" بداية عن تسعيرة الأخلاق والحق في تثمينها، فوفقه صدرت تلك التسعيرة من عمق الفوارق الماثلة بين الأقوياء ونظرائهم الضعفاء، مع حصول الغلبة للطرف الأول دون الثاني في الوهلة الأولى عند تحديد أصل الخير والشر، يقول: "فالحكم على فعل أنه طيب لم يصدر بتاتا عن أولئك الذين أغدق هذا الفعل، بل إن الطيبين أنفسهم أي البشر الأقوياء، ذوي المكانة الرفيعة والسمو، أولئك الذين اعتبروا أنفسهم طيبين، وحكموا على أفعالهم بأنها طيبة، فأوجدوا بذلك تسعيرة الأخلاق هذه في مقابل كل ما هو منحط وديء ومبتذل وسوقي ورعاعي."²

ويضيف في السياق ذاته "وأكرر إن الوعي بالرفعة والتفوق وبالفوارق الفاصلة، ذلك الشعور العام، الأساسي، الدائم والمسيطر، الذي يشعر به عرق متفوق غالب، ومتعارض مع عرق أدنى، مع بؤساء البشر هو منشأ التضاد بين الطبيب والخبيث."³

يرفض من هذا المنطلق "نيتشه" الفكرة التي أسس لها مؤرخوا أصل الأخلاق، في إشارتهم إلى أن الأصل في الأخلاق يعود إلى فكرة "الأفعال غير الأنانية"، فيما يستقر تفكيره حول تصور آخر يؤوّل فيه منشأ الأخلاق إلى الفوارق الماثلة بين الأقوياء والضعفاء دائما، حيث يثري طرحه بقوله "وإذا كان ما يتبادر للذهن للوهلة الأولى هو أن كلمة طيب لا تتصل بالضرورة بتاتا بالأفعال غير الأنانية كما هي

يتضح هذا التصور بداية عبر منظور بديهي ، أي عبر قناة المعاني الدالة عموماً على تفوق النبلاء ، على سبيل المثال مفهوم الأقوياء، الأسياد، الرؤساء، أو من معاني أخرى يصطلح عليها "نيتشه" بالدلائل الخارجية التي تعبر عن التفوق كالأثرياء والمالكين... الخ، هذا بشكل عام ، أما ومن رؤيته الأصيلة والبحثة حول المسألة المطروحة ، فإنه يرى أن الأصل في التماثل والتناظر الواقع بين كلمة طيب وكيف ينسبها النبلاء إلى أنفسهم ، فمردها إلى "سمة نمطية للطبع تحدد التسمية"⁷.

معنى ذلك إلى نموذج محدد تعزى له وظيفة هندسة التناظر في المعنى بين النبلاء وما يعبر عن هذه الفئة من معاني ، حيث يطرح "نيتشه" في هذا السياق مصطلح "الحقيقيين" ، وهي تسمية يطلقها النبلاء على أنفسهم، حيث يقول "مع ذلك فنحن نجد أحياناً سمة نمطية تحدد التسمية... فهم يسمون أنفسهم بـ الحقيقيين"⁸. وهي تنهض على معاني خلافية متقاربة نسبياً ، على شاكلة إنسان كائن أو ذا كيان ، أو ذا نصيب من الواقع ، أو هو فعلي أو صحيح، ثم يصبح الصحيح حقيقياً.

وعليه تجوز الإشارة إلى تحول في مجال توظيف واستعمال الكلمة ، لتصبح بعد ذلك دالة على معنى النبيل ، ونستدل في هذا الإطار بقوله "...الحقيقيين حيث جذرها أمراً كائناً أو ذا كيان ، ذا نصيب من الواقع ، أو هو فعلي أو صحيح، ثم أصبح الصحيح حقيقياً عبر تحوير ذاتي: في هذه المرحلة من مراحل تحول الفكرة، نجد اللفظة التي تعبر عنها تتحول إلى شعار أو عنوان ينضوي النبلاء تحته ويتخذ معنى النبيل"⁹ . وعليه تصبح لفظة طيب قيمة خلقية تختص بها فئة النبلاء ، الأقوياء أو الأسياد... انطلاقاً من عملية تحول مفاهيمية وفق تعبير "نيتشه" ، إلا أنها بعد انحطاط النبلاء أصبحت مقتصرة على معنى نبيل النفس بشكل عام لتقتصر بذلك على الضعفاء دون الأقوياء.

يوضح "نيتشه" في حديثه عن الأخلاق من منظور قيمتي الخير والشر وما يقابلهما من مفاهيم مماثلة ، بشكل من التفصيل أي فئة من البشر تختص بالأفعال النبيلة ، وأية فئة تدخل في رحابها الأفعال الخبيثة ، وبالتالي يستحضر الطبقة الأرستقراطية التي شطرها إلى شكلين ، أولهما الأرستقراطية المقاتلة التي ينسب لها ما هو قوي ، عفيف وصحي... الخ ، بمعنى كل قيمة تتكئ على ميزة خلقية

الحال بالنسبة للآراء المسبقة لدى مؤرخي أصل الأخلاق هؤلاء فإنما يعود إلى المنشأ المذكور. " أي إلى الفوارق المتجسدة بين الأقوياء والضعفاء.

وبعد تمحيصه للمحاولات التي سبقته في تأصيل الأخلاق، يستأنف البحث عن أصلها من زاوية الاشتقاق اللفظي في إطار ما يسميه الفونولوجيا من خلال إثارته النقاش حول معنى كلمة "طيب" بوصفها خلقاً خيراً ، من منظور أن امتدادها اللفظي يعود في كل اللغات إلى فكرة التميز والنبيل ، بمعنى المرتبة الاجتماعية ، يضيف "عندئذ اكتشفت أنها تشتق كلها من نفس التحول في المفاهيم ، وأن فكرة التميز والنبيل بمعنى المرتبة الاجتماعية ، هي أينما كانت الفكرة التي تولدت عنها وتطورت منها بالضرورة فكرة الطيب ، بمعنى المتميز من حيث خلقه ، وفكرة الطيب بمعنى الكريم المحتد، المصطفى من حيث خلقه..."⁵.

بهذه الصورة يكشف "نيتشه" عن خلفية محددة يؤصل انطلاقاً منها للأخلاق ، فهو إذن يتبنى في الوهولة الأولى نسفاً من المفاهيم لإثراء طرحه على شاكلة التميز ، النبيل ، المرتبة الاجتماعية... الخ ، لذلك فإنه من هذا المنظور الاشتقائي يعد متحمساً في انحيازها للأقوياء ، من قبيل أنه يجمع في وعاء واحد بين ما هو طيب إلى جانب النبيل والتميز الذي يحيل في نظره إلى المرتبة الاجتماعية ، ليجعل من تصوره هذا ينسحب على الأقوياء دون نظرائهم الضعفاء. في خضم البحث عن جينياولوجية الأخلاق في فكر "نيتشه" فإن ذلك يفضي إلى طرح التساؤل التالي ، الذي يحيلنا بشكل صريح إلى فهم التأصيل النيتشوي للأخلاق: أية فئة من البشر ينسب لها "نيتشه" قيمة طيب أو خير ، وفي المقابل أية فئة ينسب لها قيمة شر أو خبيث؟ بناء على هذا التساؤل نستطيع البحث في جينياولوجية الأخلاق النيتشوية.

بخصوص هذه المسألة يرى "نيتشه" أن النبلاء يشعرون أنهم من مرتبة اجتماعية رفيعة بناء على الكلمات الدالة في معناها على كلمة "طيب" ، والتي تنطوي عليهم عموماً ، يستطرد قائلاً "من الأهمية بمكان أن نبين كيف أن الفارق الرئيسي في المعنى الذي كان يجعل النبلاء يشعرون بأنهم من مرتبة رفيعة... عبر الكلمات والجذور التي تعني طيب."⁶

بفئة الضعفاء، لنلتمس وفق ذلك تبريرا مقنعا لخطابه الموجه للأقوياء حيث يدعوهم لرفض الفضيلة والأخلاق بشكل عام لأنها تجعل الإنسان ضعيفا، وهذا لكونه منحازا بشكل ملفت للأقوياء، وبالمقابل يدعوهم إلى التوحش والخبث... الخ، كما في نظره تكون الأخلاق بهذا الشكل أي التوحش، الخبث، الرذيلة، الاستيلاء، الانتهاك، القمع، القسوة والاستغلال... الخ.

وفي سياق تأصيله لجينالوجية الأخلاق بين ثنائية الأسياد والعبيد أو الأقوياء والضعفاء ، يسترسل يتبنى "نيتشه" مفاهيم أخرى لاستيضاحها ، منها ثنائية الإنسان الراقى وإنسان العامة ، ليحاول بذلك هندسة التفاضل بين الإنسان الراقى وعامة الناس ، فيجعل فيصلا محددًا بين الراقى والعام، يستطرد قائلا "أيها الراقون إن طبقة الشعب تنكر الإنسان الراقى ترى الناس على اختلاف طبقاتهم إنسانا واحدا أمام الله".¹⁴ ويضيف "أيها الراقون ، تعلموا مني قولي لا يؤمن أحد في الساحة العمومية بالإنسان الراقى،... فان العامة تتغامز قائلة إننا جميعا متساوون".¹⁵

في نظر "نيتشه" الإنسان الراقى هو الإنسان المتفوق الذي يمثل السيد ، وهو موضع اهتمام وتأيد لديه مقارنة بإنسان العامة ، فهو وفق هذا المنظور يحاول القول بالزامية التدرج الطبقي إذا تعلق الأمر بالمجتمع ، يضيف "بناء اجتماعي من دون تراتبية محال: إن الامتناع عن العنف والانتهاك والاستغلال المتبادل ، والمساواة بين إرادة الذات وإرادة الآخر ، يمكن أن يصيرا ، بمعنى معين وعام من مكارم الأخلاق بين الأفراد إذا ما توافرت الشروط الملزمة لذلك لكن ، ما أن يؤخذ بهذا المبدأ على نطاق أوسع وصولا إلى عده مبدأ أساسي للمجتمع ، حتى يتبين على ما هو عليه: إرادة لنفي الحياة ومبدأ انحطاط وانحلال... لأن الحياة هي جوهرها استيلاء وانتهاك وغلب للغريب والضعيف وقمع وقسوة وفرض للأشكال الخاصة واستيعاب، بل هي على الأقل في أرحم الحالات استغلال".¹⁶ أما الإنسان الراقى فيتموضع ضمن بنية أخلاقية يحدد معالمها "نيتشه" فيذكر على سبيل المثال قوله "أيها الراقون أعتقدون أنني أتيت لأصلح ما شوهتم بأخطائكم ، ولأهتم بتهيئة المراقدين الوثيرة للمتألمين منكم... لا فليذهب إلى الفناء الخيار في

إيجابية أو نقول القوة ، وصولا إلى طبقة الارستقراطية الكهنوتية، فيجعلها مصدرا ينبثق منه العجز والكرهية أي الضعف.

لا يفوتنا في هذا السياق الحديث عن جدلية العبد والسيد بحكم أنها تزيد مسالة جينالوجية الاخلاق وضوحا، وبالتالي يجدر التنويه بما اصطلح عليه "نيتشه" "تمرد العبيد في الأخلاق" بوصفه يشكل دلالة حاسمة في محاولة ترسيخ القيم الأخلاقية الرفيعة كقيمة الخير وما يماثلها من قيم لصالح العبيد أو نقول الضعفاء عموما ، حيث ينشئ ذلك التمرد عن وجود حافز خارجي ، يستطرد "نيتشه" قائلا "فأخلاق العبيد تحتاج دائما وقبل كل شيء إلى عالم مواجه لها وخارج عنها... إنها بحاجة على حد التعبير الفيزيولوجي إلى حافز خارجي...".¹⁰

فضلا عن الحافز الخارجي الذي يحيلهم إلى التمرد في الأخلاق، يتبنى العبيد صيغة أخرى تحريا للانتصار، "لكن في الحقيقة أن الضعفاء، والعبيد لا ينتصرون بجمع قواهم بل بطرح قوة الآخر: يفصلون القوي عما يستطيعه".¹¹ أي أن الضعفاء يجردون الآخر القوي من آليات التفوق- الأخلاق- لتعيد بذلك استحضار الهيمنة الروحية كفعل استراتيجي يطرحه العبيد-الضعفاء لتجريد وسلب الأقوياء وظيفه صنع الأخلاق بدافع قلب القيم وجعلها كحيله للتعايش مع الأقوياء.

أما استحضار الهيمنة الروحية فيحيل إلى الوظيفة الروحية التي أثت لها المصلحون في سعيهم لإصلاح الإنسان أو نقول موضعه ضمن بنيته الأخلاقية ، "لقد أراد المصلحون على مر العصور أن يصلحوا الناس ، أن يصيروهم أفضل: هذا ما كان يسمى أخلاقا قبل أي شيء آخر".¹² أما المصلحون في نظر "نيتشه" فهم القساوسة ، وهم في حد ذاتهم قد أفسدوا الإنسان عندما أصلحوه ، أي عندما أضافوا له الأخلاق، كما وقد أصبح بعد ذلك ضعيفا، "القول بأن ترويض حيوان ما هو جعله أفضل...إنهم يوهنوه، يصبرونه أقل خطرا ، يجعلون منه حيوانا مرضيا بالتأثير المحيط للخوف، بالألم بالجراح والجوع...ولا يختلف الأمر عن ذلك بالنسبة للإنسان المدجن الذي أصلحه القس".¹³

فمن منظور "نيتشه" يصبح الإنسان ضعيفا في الوقت الذي يمارس فيه الأخلاق، وبالتالي ترتبط الأخلاق

نوعكم, إذ يقتضي أن يتزايد ضيقكم مع مرور الأيام ... الخ.¹⁷

يعلن "نيتشه" من عمق هذا الخطاب تورط الإنسان الراقى في نسج تجاوزات لا أخلاقية هذا من حيث الشكل العام للخطاب , وهو الأمر الذي نلتسمه مجدداً انطلاقاً من مضمون خطابه , حيث وردت مصطلحات دالة في معناها على خبث الإنسان الراقى ودنائه وكونه متجرداً من الأخلاق, ومنها لأصلح ما شوهتكم بأخطائكم... للمتألمين منكم... فليذهب إلى الفناء الخيار في نوعكم... إذ يقتضي أن يتزايد ضيقكم مع مرور الأيام... الخ , كما يشير "نيتشه" إلى دناءة الإنسان الراقى انطلاقاً من قيم لا أخلاقية دينية أخرى, تتمثل في الاقتصاد على الاعتراف بالذات وحبها في مقابل نكران الآخر, حيث يذكر في هذا الشأن: "...لأنكم من أجل ذاتكم تتألمون لا من أجل الإنسان...".¹⁸ , وبهذا تتضح طبيعة الإنسان الراقى في كونه ينفرد بذات لأخلاقية.

يضيف اثرءاً لتصوره "أعرضوا عن كلمة من أجل" وتناسوها, أيها المبدعون, لأن فضيلتكم تتوقف على ألا تفعلوا شيئاً من أجل أحد وبسبب أحد أو لأية علة... الخ.¹⁹ وقوله أيضاً "كلما تعالت المثل صعب تحقيقها, أفما أنتم أيها الرجال الراقون نماذج فاشلة للمثل الأعلى؟... واضحكوا من أنفسكم إذ لا عجب في أنكم نماذج فاشلة أو نصف فاشلة لأن نصفكم منحط."²⁰

يستزيد "نيتشه" في توضيح تصوره حول الأخلاق بقوله "إن الأخلاق كما فهمت حتى الآن- كما صاغها "شوبنهاور" في نهاية المطاف , ك"نفي لإرادة الحياة"- هذه الأخلاق هي غريزة الانحطاط نفسها كأمر: تقول: "اهلك" , إنها الحكم الصادر على المحكوم عليهم...".²¹ ويضيف أيضاً في إطار دحضه للأخلاق "ليست هناك حقائق أخلاقية, يشترك الحكم الأخلاقي مع الحكم الديني في الإيمان بحقائق ليست في شيء, تشترك الأخلاق مع الحكم الديني في الإيمان بحقائق ليست في شيء , ليست الأخلاق إلا تفسيراً - أو بتعبير أدق , تفسيراً خاطئاً لبعض الظواهر."²² هذه الكيفية يحاول "نيتشه" إلغاء الأخلاق الطبيعية وكذا الدين من الوجود.

وفق هذا المنظور فان "نيتشه" يقتفي أثر "شوبنهاور" في تعرضه لمسألة الأخلاق , حيث لا يتردد في اعتبارها محض عائق في الحياة وعليه يؤثت إلى تجاوزها

واقصائها في مقابل تبني قيم لا أخلاقية مع اعتبارها قيم أخلاقية أصيلة, يستزيد اثرءاً لتصوره "إن الأخلاق في كونها تدين في المطلق وليس بالقياس إلى الحياة, أو مراعاة للحياة, هي خطأ جوهرى لا يوحى بأية شفقة , ويتعلق بمزاج منحط أساء سابقاً بلا حدود."²³

كما لا تفوتنا الإشارة إلى الطبيعة الأخلاقية لـ "نيتشه" في حد ذاته , إذ لا تتردد في اعتباره مناهضاً بامتياز لكل ما هو أخلاقي ولالأخلاق عموماً , الأمر الذي ساقه إلى المفاضلة بين الأقوياء والضعفاء , لينحاز بعد ذلك لصالح الأقوياء, يذكر مبرزاً طبيعته الأخلاقية: "...أما نحن , نحن الآخرين, نحن اللأخلاقيين , فقد فتحنا قلبنا كبيراً , على العكس, لكل تفهم لكل موافقة - لا نحب أن نقول لا نراهن بشرفنا لنكون أولئك الذين يقولون نعم."²⁴ , وفق نيتشه كل إنسان متخلق فهو إذن ضعيف.

إن السياق العام الذي يؤثت من خلاله "ف.نيتشه" لجينياالوجية الأخلاق لا يمر فحسب عبر مسار هيجل- شوبنهاور بل تقتحم هذا المسار أعمال "فريدريك شيلر" كأحد مؤسسي الفكر الكلاسيكي الألماني في الفلسفة والتاريخ والأدب. لفهم التصور الشيليري الذي يثري بدوره تصور "ف.نيتشه" ننطلق من المقولة التالية "يقتفي شيلر آثار أصل الشر: انه يكشف فضيحة العيب والظلم لطبيعة تفضل واحداً وتظلم الآخر. يتورط المرء في ظروف تعيسة, مما يعطي مبررات جيدة, للارتياح بالحياة, وهكذا تنشئ ضغائن مميتة."²⁵ وفق "شيلر" الطبيعة تنتج الشر, المرفوق بالعيب والظلم... الخ, بناء على ذلك تعكس الطبيعة مظهر القوة, لكن يتجرد "شيلر" من كل مظهر للقوة وللطبيعة التي تنتجها, "كانت علاقة شيلر إزاء الطبيعة تتسم بالمجاهبة, حتى مع نفسه, وكان الجسد هو المعتدي, ويوضح شيلر: إننا لا نعتبر حالتنا الجسدية التي تم تحديدها من خلال الطبيعة, جزءاً من ذاتنا على الإطلاق, إنما نكاد نعددها شيئاً خارجياً وغريباً."²⁶ ليعلن بعد ذلك عن ميله المفرط إلى المثالية.

إذن يجعل "ف.نيتشه" كما "شيلر" للشر أصلاً واحداً, حيث يؤوله كل منهما إلى القوة, من هذا المنطلق ينصّب "شيلر" نفسه مثالياً ليتجرد من عبثية القوة ومظاهرها القاسية "كان شيلر مثالياً وواقعياً في ذات الوقت" يضيف قائلًا "إن الروح هي التي تبني جسداً لها"²⁷

وسائل الإنتاج المادية واللامادية، وبالتالي فإنها تنفرد بتأطير المجتمع، وفي المقابل توجد طبقة بروليتارية-ضعيفة، فبصرف النظر عن عدم امتلاكها لذاتها فإنها لا تملك أي شيء، إذن انطلاقاً من تملك الأشياء يتم توزيع الأفكار والأشخاص.

إن محاولة تبيئة مسألة الأخلاق في إطار الفكر الماركسي وضمن ثنائية "برجوازية-بروليتارية"، فهذا يدفع إلى القول أنه "...أضحت الأخلاق على الدوام، أو تحولت على الدوام، إلى أدوات سيطرة بالنسبة لطبقة مغلقة أو طبقة اجتماعية، بين ماركس بمائة صورة وصورة أنه لم يكن هناك أبداً أخلاق سادة وأخلاق عبيد، بل أخلاق أوجدها السادة من أجل العبيد."³¹

وفق هذا المنظور يتعين علينا أن ندرك ملياً ودونما تردد أن الأخلاق لدى "ماركس" هي حتماً من صنع السادة-الأقوياء، أي تلك الطبقة المسيطرة المالكة لكل شيء، وبتعبير آخر يمكن القول أن البناء الاقتصادي-المادي لا يحدد فحسب من يصنع الأخلاق بل يحدد كذلك من يخضع لها، "لقد صدق القانون دوماً كالأخلاق على العلاقات والظروف الموجودة بحيث يثبته ويعطفها في اتجاه سيطرة الطبقات المتمتعة اقتصادياً بالامتيازات والحاكمة سياسي."³²

إذن من المنظور السابق يتضح أن أصل الأخلاق والاستلاب عموماً لدى "ماركس" يعود إلى الطبقة المتحكمة في البنية الاقتصادية-المادية، وعليه فإن الطبقة المتمتعة اقتصادياً تنتج الأخلاق كإيديولوجيا بدافع السيطرة والاستغلال، بينما تعفي نفسها من تلك الأخلاق، "وبالأصالة عن أنفسهم، يتخلص الأسياد دوماً من المآزق، كانوا يعرفون تفسير الالتزامات الأخلاقية أو الانعتاق منها بعزم عندما كانت تضايقهم."³³

ولا نفوتنا فرصة التنويه أن الاستلاب ينهض على شكلين اثنين، أما الأول فهو مثالي نظري، أو نقول مجرد، على شاكلة الاستلاب الديني، الأخلاقي... الخ، وأما الشكل الثاني فهو استلاب عملي، أو مادي بشكل عام، "... استلاب الإنسان ليس نظرياً ومثالياً، أي على مستوى الأفكار

والمشاعر وحده، انه أيضاً عملي بشكل خاص وينكشف في كل مجالات الحياة العملية..."³⁴ إن الحديث عن الأخلاق

في اشارته منه إلى مثاليته. إن ما يلتقي فيه "نيتشه" و"شيرلر" بعمق هو ما تنتجه الروح-الإنتاج المثالي- أنتجت الروح لدى "نيتشه" فكرة الإنسان الضعيف المتشعب بالأخلاق، كقيمة الخير وما مائلها، كما أنتجت الروح لدى "شيرلر" قيمة مثالية كقيمة الحب مثلاً "أعلن شيرلر بلا وجل أن الحب هو القيمة العظمى."²⁸

من "هيجل" إلى "شوبنهاور" وانتهاءً بـ"شيرلر" تزداد صورة الأخلاق لدى "نيتشه" وضوحاً، ليجعلها وصماً يحملها الضعفاء، إذ يدعو على العموم إلى تجاوزها "يتأسس النقد النيتشوي للزرعة الإنسانية، على فكرة أنها ميتافيزيقا، وأن الميتافيزيقا بدورها عبارة عن أخلاق، تصطنع قيماً مزيفة للواقع، ومتعالية عليه، أي قيم مثالية تهدف إلى إخفاء وطمس مظاهر حقيقة الوجود القاسية... يرى نيتشه، أن النقد الجذري للفكر الميتافيزيقي برمته، لا يتحقق إلا بفضح حقيقته التي تكمن في أنه مجرد أخلاق."²⁹ فمن هذا المنظور يتم تتبع أصل الأخلاق لدى "نيتشه" وهي وفقه حيلة استعملها الضعفاء للتعايش مع الأقوياء.

2- الأخلاق من منظور كارل ماركس

بخلاف الرؤية التي تمت صياغتها حول أصل الأخلاق لدى "فريدريك نيتشه"، نأتي فيما يلي إلى عرض التصور الذي طرحه "كارل ماركس" ومنظوره الخاص حول مسألة الأخلاق ومنشأها، لكن قبل الولوج في البحث عن أصل الأخلاق لدى "ماركس" فإننا لا نتردد في الإشارة إلى الارتباط المعرفي الحاصل بين "ماركس" و"فيورباخ" أو بتعبير آخر التواتر السوسيو-فلسفي المنجدل بين "كارل ماركس" و"فيورباخ"، وبخاصة فيما يتعلق بمفهوم الاستلاب. أما "ماركس" فيجعل للاستلاب آليات خلافية، ومنها الأخلاق، "لم ينفصل الاستلاب الأخلاقي إذا تاريخياً واجتماعياً وعملياً، عن الأشكال الأخرى للاستلاب: الأيديولوجيا العامة، القانون، الدين... الخ."³⁰ إلا أن المهم في هذا السياق هو إيجاد إجابة لتساؤل مشروع يطرح بشدة: ما هو أصل الأخلاق لدى ماركس؟ إن هذا التساؤل يقود في آخر المطاف إلى معرفة أصل ومعنى الاستلاب لدى "ماركس" دائماً.

مما لا يدنو إليه الشك أن ثنائية "برجوازية-بروليتارية" تنفرد بفضاء رحب داخل الفكر الماركسي، وعليه يتم الحديث عن طبقة برجوازية تمتلك أغلب الأشياء ومنها

في خضم هذا التحليل يكفيننا طرح التساؤل التالي حتى تتمكن من رصد الأطر الفكرية التي عزز من خلالها MARX تصوره المادي للمسائل التي تعرض لها: إلى أي مدى ساهمت أعمال FEUERBACH في تطعيم الجدل المادي لدى MARX وتأثيره في الحكم على أصل الأخلاق؟ قبل أن نستهل عرض العلاقة الماثلة بين MARX و FEUERBACH نشير في هذا الإطار إلى ثلوث معين ساهم في بلورة معالم الفكر الماركسي والاتجاه المادي حول الأخلاق بشكل عام، يتمثل في "HEGEL، FEUERBACH، MARX"، وقد قمنا بتفصيل الشطر المتعلق HEGEL و MARX لكن قبل الحديث عن MARX في علاقته به FEUERBACH وكيف عمل هذا الأخير على إشباع الجدل الماركسي بماديته، نأتي إلى اختصار التفصيل حول HEGEL و FEUERBACH وما يتخللهما من أنساق معرفية يشتركان فيها وأحيانا أخرى يتعارضان.

لم يكن FEUERBACH في الوهلة الأولى ماديا، بل مثاليا هيغيليا، حيث دفع به عدم اقتناعه بالتصورات التي أسسها HEGEL إلى التحول عن المثالية، ومن خلال المقاطع التالية يمكن أن نظهر شيئا من المثالية التي استهل بها FEUERBACH مشواره، "وبلا شك فقد أفاد فيورباخ من هذا الحوار في تحوله عن المثالية مستخدما بعض حجج من سبق له أن هاجمهم، وفيورباخ يقول أنه حتى في نقد مناهضي هيغل وبصفة خاصة على باخمان فقد طور مذهبه المناهض لهيغل في صمت...".³⁶ كذلك "لقد كان فيورباخ يحوي بداخله مناهضة للهيغيلية ولكن نظرا لأنه لم يكن قد اكتمل نضجه بعد فإنه يلوذ بالصمت".³⁷ ومن خلال المقطع التالي أيضا "يقول ANTHONY GIDDENS: إن فيورباخ يسعى في ماهية المسيحية، وكذا في كتاباته التالية إلى قلب القضايا المثالية لدى هيغل، فإذا كان هيغل قد رأى أن الواقعي ينبثق عن المقدس، فإن فيورباخ قد برهن أن المقدس نتاج وهمي (خيالي) للحقيقي، وعلى أن الوجود هو الأساس الذي يتقدم الفكر".³⁸ ونظيف "...حيث يرى فيورباخ أن جدل الروح وهم...".³⁹

تأسيسا على المنظور السابق نلتمس رغبة

FEUERBACH الكامنة في رفض التصور الهيغيلي ليس

تجاه مسألة الأخلاق فحسب، بل حول مثالية "هيغل"

لدى K.MARX وفق المنظور السابق، ونقصد المنظور المادي، يقود إلى طرح التساؤل التالي: ما هي التيارات الفكرية التي بلور من خلالها MARX موقفه حول الأخلاق؟ إن مجرد العمل على تفكيك هذا التساؤل يمضي بنا مباشرة نحو تحديد معالم العلاقة الماثلة بين MARX والأطر الفكرية التي ساهمت في بناء فكره ومواقفه تجاه العديد من المسائل والقضايا، ونستهل بداية الحديث عن MARX في علاقته بـ HEGEL، فهذا الأخير لا يمكن إنكار فضله الكبير على الأول، فـ MARX وقبل أن يكون ماركسيا كان هيغيليا، وكونه ماديا فلم يكن كذلك منذ الوهلة الأولى، بل تحول من المثالية التي أنتجها HEGEL إلى ما هو عليه الآن في لحافه المادي، وان كان قد استلهم من HEGEL فكرة الجدل، إلا أنه قام بتحويل تلك الفكرة وفق منطلقات خلافية، فمن الجدل الهيغيلي المثالي والروحي إلى الجدل الماركسي المادي.

في هذا الإطار يقول MARX "إن طريقتي الجدلية لا تختلف من حيث الأساس عن الطريقة الهيغيلية فحسب، بل هي نقيضها المباشر، فـ "هيغل" يعتبر أن عملية التفكير التي جعل منها ذاتا قائما بنفسه أطلق عليه اسم "الفكرة"، هي خالق العالم الواقعي، وهذا العالم الواقعي لا يمثل سوى الظاهرة الخارجية لتجلي الفكرة، وأما عندي فالأمر معكوس، إذ ليس المثالي سوى انعكاس وترجمة للعالم المادي...".³⁵

فما ذكره MARX حول طريقتيه الجدلية المنبئية على أسس اقتصادية-مادية، ينهض على تبرير صادق في حكمه على العديد من المسائل، ومنها الأخلاق، فحديثه عن أسبقية المادة عن الفكر يحيل إلى أن الأخلاق نتاج مادي طبيعي، إذا أردنا فهم هذه المسألة من منظور المنهج الجدلي لدى MARX المتأسس على ثلاث مظاهر تتمثل في "المظهر الطبيعي، المظهر المنعكس ثم المظهر الوهمي"، وعليه فإن الأخلاق في إطار التصور الذي صاغه MARX تمثل البنية الفوقية التي نتجت كمنعكس لبنية تحتية مادية محددة، وبشكل أشد وضوحا "من يملك وسائل الإنتاج المادي، يخول له صنع الأخلاق".

برجوازي يعكس طبقة الأسياد باعتبارها الطبقة القوية في المجتمع تنتج الأشياء والأفكار ، لنصل بذلك إلى إثبات أن الأخلاق من وجهة نظر اليسار الهيجلي الذي يمثله "ماركس" من صنع المسيطرين على وسائل الإنتاج. وبالعكس من هذا المنظور ينطلق "فريدريك نيتشه" المندرج في سياق اليمين الهيجلي عند تأصيله للأخلاق من رؤية مغايرة لـ"ماركس"، وهي رؤية مثالية تؤسس لفكرة أن الأخلاق من صنع الضعفاء، حيث ترى هذه الفئة أن كل الأفعال الخيرة تعكس الذريعة التي يتعايش بها الضعفاء مع الأقوياء وهي تأخذ موضع الأخلاق في نظر "نيتشه"، ليتعزز وجودها بناء على هيمنة روحية. وفق هذه الكيفية تأتي إلى الإجابة عن التساؤل الذي يبحث في أصل الأخلاق لدى "كارل ماركس" و "فريدريك نيتشه"، وفضلا عن ذلك لا نصل فحسب إلى فهم التناقض الحاصل بين اليسار الهيجلي ونظيره اليمين الهيجلي بل نثبت حقيقة ذلك التناقض.

قائمة المراجع

- (عبد الرزاق، الدواي. موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر: (1) هيديجر، ليفي ستراوس، ميشيل فوكو. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر. ص 22.
- (جيل، دولوز. نيتشه. ترجمة: أسامة الحاج. ط 1. لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1998، ص 22-23.
- (فريال، حسن خليفة. نقد فلسفة هيجل. بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع. 2006، ص 23.
- (هنري، لوفي بفر. الماركسية. ترجمة: حبيب نصر الله نصرالله. ط 1. لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 2012، ص 23.
- (أحمد عبد الحليم، عطية. الإنسان في فلسفة فيورباخ. بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع. 2008، ص 24.
- (فريدريك، نيتشه. أصل الأخلاق. ترجمة: حسن قبليسي. بيروت (لبنان). المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر. ط 1، 1971، ص 25.
- (فريدريك، نيتشه. هكذا تكلم زراداشت. ترجمة: فليكس فارس. القاهرة، مؤسسة هندواي للتعليم والثقافة، 2004، ص 25.
- (فريدريك، نيتشه. أفول الأصنام. ترجمة: حسن بورقيبة و محمد الناجي. إفريقيا الشرق. ط 1، 1996، ص 25.

عامة، لنجده فيما بعد يفصح عن توجهه الخاص، بكيفية صريحة، ومنها قوله "...إن الانتقال من المجرد إلى العيني من المثالي أو من الصوري إلى الواقعي وضع مقلوب يجب تصحيحه، لأن هذه الطريقة التأملية لن تؤدي بنا إلى الواقع الموضوعي والحقيقي بل إلى المجردات ...".⁴⁰

إن FEUERBACH يرفض الانتقال من المثالي إلى الواقعي...انه يعمل على تكريس العكس تماما، من الواقعي - المادي- إلى المثالي، ونظيف دائما في سياق توضيح العلاقة الماثلة بين FEUERBACH و HEGEL من الصورة التالية "يبدأ هيجل من الفكرة المطلقة، وأنها هي أساس الطبيعة والواقع، وكذلك المؤسسات الاجتماعية والسياسية فما هي إلا تحديات متناهية أو تعيينات ذاتية صادرة عن الفكر، ومن ثم تبدو العلاقة بين الفكر والوجود انتقال من الله إلى العالم، من المجرد إلى العيني، من المثالي إلى الواقعي، وذلك في نظر فيورباخ وضع معكوس أو مقلوب يجب إصلاحه...".⁴¹ وبهذا الشكل بإمكاننا القول عن FEUERBACH أنه كان مثاليا يكتم ماديته، إلى أن تهيأت لديه فرصة البوح بماديته ثم الانسلاخ عن HEGEL ، وان كان البعض يقر بوجود عناصر هيجلية في الفكر الفيورباخي الحديث ...

بينما إذا أردنا البحث فيما يلتقي ويجتمع ضمنه MARX و FEUERBACH فيكفيينا القول أن كلاهما كان غارقا في المثالية الهيجلية، وكنا فيما أسلفناه من ذكر قد أوضحنا كيف تحول FEUERBACH عن HEGEL ، ثم إعادة النظر في العلاقة بين الفكر والواقع، وهو التصور ذاته إذا تعلق الأمر بـ MARX في تحوله عن HEGEL حيث أكد على ضرورة قلب المنهج الهيجلي وجعله يسير على رجليه بدلا من رأسه، ومعنى هذا كله هو الرغبة في التحول والانسلاخ عن المثالية الهيجلية، والانتقال إلى بناء تصوراته وفق منظور مادي خالص، وبالتالي يلتقي MARX و FEUERBACH في التصور المادي للمجتمع.

خاتمة

من خلال ما تمت مناقشته نستحضر مكانة كل من الهيمنة المادية والهيمنة الروحية في تشكيل معالم مسألة الأخلاق لدى "كارل ماركس" و "فريدريك نيتشه". حيث انطلق الأول في تأصيله لمسألة الأخلاق بوصفها مكونا من مكونات البناء الفوقي الذي يتمخض عن فكرة الأساس الاقتصادي-المادي للمجتمع بوصفه البناء التحتي كإنتاج

- (فريدريك، نيتشه. ما وراء الخير و الشر: تباشير فلسفة للمستقبل.
⁹ ص 26.
- (¹⁰ المرجع نفسه.
- (¹¹ جيل، دولوز. المرجع السابق. ص 29.
- (¹² المرجع نفسه. ص 58..
- (¹³ المرجع نفسه. ص 58-59.
- (فريدريك، نيتشه. ما وراء الخير و الشر: تباشير فلسفة للمستقبل.
¹⁴ المرجع السابق. ص 240.
- (¹⁵ المرجع نفسه
- (¹⁶ المرجع نفسه. ص 25-26.
- (¹⁷ المرجع نفسه. ص 242.
- (¹⁸ المرجع نفسه. ص 243.
- (¹⁹ المرجع نفسه. ص 244.
- (²⁰ المرجع نفسه. ص 247.
- (²¹ فريدريك، نيتشه. أفول الأصنام. المرجع السابق. ص 41.
- (²² المرجع نفسه. ص 57.
- (²³ المرجع نفسه. ص 42.
- (²⁴ المرجع نفسه. ص 57.
- روديغر، زافرانسكي. فريدريش شيلر أو اختراع المثالية الألمانية.
²⁵ ميونيخ. 2005، ص 66.
- (²⁶ المرجع نفسه. ص 65.
- (²⁷ المرجع نفسه.
- (²⁸ المرجع نفسه.
- (²⁹ عبد الرزاق، الدواي. المرجع السابق، ص 34.
- (³⁰ هنري، لوفي بفر. المرجع السابق. ص 64.
- (³¹ المرجع نفسه. ص 63.
- (³² المرجع نفسه.
- (³³ المرجع نفسه.
- (³⁴ المرجع نفسه. ص 47.
- (³⁵ فريال، حسن خليفة. المرجع السابق. ص 198.
- (³⁶ أحمد عبد الحلیم، عطية. المرجع السابق. ص 36.
- (³⁷ نفس المرجع. ص 45.
- (³⁸ نفس المرجع. ص 42.
- (³⁹ فريال، حسن خليفة. المرجع السابق. ص 361.
- (⁴⁰ المرجع السابق. ص 116.
- (⁴¹ المرجع نفسه.